مقدمة الكتاب

تفصل بين العالمين : القديم والوسيط فجوة كبيرة ، قد لا يسد ثغرتها ـ من حيث اهتمام القارئ العام ـ إلا ذلك السفر الجليل « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » الذى دبجته يراعة جيبون . وعلى الرغم من الأبحاث المستفيضة التى تمت فى السنوات الأخيرة ، فإن من العبث أن ننكر أن القرون المعروفة باسم « العصور المظلمة » لا تزال من أشد مراحل التاريخ الأوربى غموضا . ومع ذلك ، فلا شك أن الجهود المبذولة فى استجلاء كثير من المسائل الرئيسية قد أحرزت بعض التقدم . فإن بعض الآراء قد نبذ نبذاً قطعيا ، إذ يرى الثقات اليوم مثلا ، أن الإمبراطورية الرومانية لم تنته بسقوط عاصمتها الغربية ولا بخلع رومولوس أو غسطولوس . وتفسير زوال العالم الرومانى بأنه حادث فجائى يفسح المكان بعد المزيد من التحليل، لنظرية تطور قائمة على قسط أكبر من الاستدلال. كما أن ما أسدته بيزنطة فى التاريخ من جلائل الأعمال أخذ ينال حظه من الإنصاف ، فضلا عن التقدير الذى نال العناصر الأصيلة للحضارة التى واصلت حمل لواء التقاليد الرومانية على ضفاف البوسفور .. ولم يعد أحد ينظر إلى الهجوم الإسلامى من خلال أعين خصومه فى القرون الوسطى ، الذين ضرب تهديده لعقيدتهم على أبصارهم غشاوة ، أعمتهم عن الأصل المشترك للثقافتين المسيحية والإسلامية . ذلك لأن الدراسة العميقة النقادة لفن ذلك الزمان وأدبه [1] أفضت فى كثير من الحالات إلى ازدياد تقدير الإسلام ، كما أنها أفضت دون ريب إلى تعميق الإحساس باستمرار الصلة بين النظام القديم والنظام الجديد .

---

(١) يقصد المؤلف هنا لفظة الأدب بمعناها العام الذى يضم جميع ما حوته اللغة من المصنفات والمؤلفات . (المترجم)

وازداد وضوح كبار الشخصيات فى ذلك الزمان عن ذى قبل ، كما أن مستكشفات علم الآثار القديمة (الأركيولوچيا) والاهتمام الحديث بالأحوال الاقتصادية ، هيأت للخيال الناشط صورة أكثر إشراقاً للحياة اليومية للمجتمعات والأفراد. وقد حاولنا فى الصفحات الآتية تقديم خلاصة موجزة لقرون أربعة من التاريخ الأوربى كما تشاهد فى ضوء تلك النتائج .

ومن الأمور الواضحة التى لا تحتـــاج إلى تأكيد ذلك الطابع التعسفى للعصور التاريخية التى ليست فى الواقع ، من نواح معينة ـ سوى وسيلة ممتازة للحفظ والتذكر . فالعمليات العضوية لا يمكن أن تشطر شطراً باتا بلمسة قلم ، ولا يكاد عاقل يتوقع أن تتطور جميع أشكال النشاط البشرى بنسبة واحدة متساوية . ولذا وضع العلماء تواريخ مختلفة لبدء العصور الوسطى ، تتراوح بين القرن الثالث والقرن الثامن ، ولكل من هذه التواريخ من المبررات ما يتفق مع ما يرتبط من أهمية بمظهر من مظاهر الحضارة الأوربية . وبناء على هذا ربما كان يحق لعام ٣٩٥ أن يعد تاريخاً لبدء تلك العصور مثلما يحق لأى عام آخر، ذلك أن وفاة ثيودوسيوس الكبير حدثت فى لحظة بالغة الأهمية لأوربا . فإن ثيودوسيوس ظل إبان السنوات الثلاث الأخيرة من حياته يحكم دون منازع فى الأملاك الرومانية . ومنذ تلك اللحظة أصبح تقسيم الإمبراطورية إلى شرق وغرب نهائيا ، على الرغم من أن الإمبراطورية لم تبرح من الناحية النظرية متحدة. ففى مدة حياته كان فى الإمكان اعتبار بريطانيا وبلاد الغالة وأسبانيا أجزاء متكاملة من الإمبراطورية الرومانية ، ولكن ثلاثتهن انتقلن فى أقل من جيل واحد إلى قبضة فاتحين من المتبربرين الهمج ، وسقطت روما فريسة فى يد القوط الغربيين . وهـــذا الإمبراطور المقاتل الذى هلك اثنان من أسلافه

المباشرين صرعى فى ميدان القتال على الحدود ، خلفه على العرش سلسلة من الحكام الضعاف ، وانتقل السلطان الحقيقى فى الدولة الرومانيـة إبان ما يقارب القرن من الزمان إلى قبضة أمراء الجند . ولو نظر المرء إلى الدولة من ناحيتها الداخلية لمـا وجد فيها إلا تغيرات طفيفة لا تـكاد تستلفت الأنظار . ذلك أن غارات المتبربرين ، وإن اتسمت بالفظاعة التامة ، لم تزد على أن عجلت بالفوضى والمحن التى كابدت العناء منها معظم الولايات الغربية منذ بدء نشوب الفوضى فى القرن الثالث . ولم تـكن الإصلاحات الخطيرة التى أنجزها دقلديانوس وقسطنطين ، والتى أنهت هذه الفوضى ، إلا تحقيقا إلى حد كبير لنزعات كانت واضحة للعيان فى عهد الإمبراطورية الأولى ـ وذلك لأن نهاية القرن الرابع لم تحدث أى انقطاع حقيقى فى نظام الحـكم الإمبراطورى . وكل ما فعلته أنها اعترفت صراحة بحقيقة واضحة هى أن : « أسرة قيصر » خَلَفت فعلا الهيئة التنفيذية الدستورية التى ورثتها الإمبراطورية عن الجمهورية الرومانية . ومع ذلك ، فهناك تغيير واحد كانت له أهمية أعظم من أى تغيير آخر فى مستقبل أوربا أدخـله قسطنطين حين أشرك الـكنيسة المسيحية فى حكم الدولة . إن هذه الخطوة هى الفاصل بين العالم القديم وعالم العصور الوسطى . ذلك لأن اعتناق العقيدة الجـديدة قد غير اتجاه عقول الناس وحدد سياسة حكامهم . ولم تـكف الإمبراطورية الرومانية نهائياً عن المحافظة على التوازن بين المسيحى والوثنى إلا فى عهد ثيودوسيوس ، ولذا فإن النتائج الـكاملة لإجراء قسطنطين الثورى لم تأخذ فى الظهور إلا فى تلك الآونة . لهذا السبب ، إن لم يكن لغيره ، يجوز حقاً لهذا البحث الذى نضعه بين يديك أن يتخذ من وفاة ثيودوسيوس الـكبير مؤسس الدولة المسيحية نقطة بداية .

وربما وجب علينا أن نذكر أن الغرض من الخرائط التخطيطية والصور التى يحتويها الكتاب هو التوضيح والإنارة . وسيجد القارئ فى قائمة المراجع إحالات إلى بعض الأطالس التاريخية والمراجع المصورة للفن فى أوائل العصور الوسطى .

وأود أن أعبر عن شكرى للأستاذ العالم ن . هـ . باينز على ما بذله من مساعدة وتشجيع مثمر لى فى أثناء تأليف هذا الكتاب، وإلى المستر ا.ل. ودوارد والأستاذ العلامة هـ . ا . ر . جب والمستر د. بيرلى والمستر ج. ن . ل . مايرز على ما قدموه من نقد نفيس واقتراحات قيمة ، وإلى القائمين على مطبعة كلارندون لقاء كرم أخلاقهم وسعة صدورهم .

أغسطس ١٩٣٥ هـ . سنت . ل . ب . م